رأي فى تعليم اللغة (١)

للأستاذ محمد سعيد العريان

أساتذتى ، إخوانى

أبدأ حديثى إليكم بالشكر على ما جشمتم أنفسكم لاستماع هذا الحديث ، ولعلى لم يغب عنى ماقد يكون أكثركم فى حاجة إليه من الراحة فى مثل هذه المرحلة من العام، وفى مثل هذه الساعة من نهار الصيف ، ولعلى لم يغب عنى كذلك ماقد يكون بعضكم، من زملائنا فى الريف، فى حاجة إليه من اجتلاء وجه القاهرة والتعرف إليها بعد غيبة عام أو أعوام . . .

. . . لم يغب عنى هذا ولاذاك ، بل إنى أذكره ، لأنى أحسه فى نفسى ، فلا جرم أن يتضاعف بهذا إحساسى بمعارفتكم حين سعيتم إلى طائعين مختارين ، فى هذه المرحلة من العام ، وفى هذه الساعة من نهار الصيف ، ولا جرم أيضا أن يتضاعف بهذا وذاك شعورى بما على من فرض لأعوض عليكم بعض ما تجشمتم وأفى لكم بجزاء بعض عارفتكم ، وما أنا أهل لذلك كله ، فما أحرى أن ألتمس اليكم المعذرة إن قصرت ، وأن أستند الى بعض ما أطمع أن أجده عندكم من سعة الصدر ، وأنتم أهل لذلك كله ؟

وبعد ، فماذا أنا قائل اليوم ؟

« رأى فى تعليم اللغة » ! . . . هو رأى ، خذوه غير منسوب الى رائيه ، رأياً نكرة بين معارف الآراء ، رأى فتى خبر هذه المهنة عمرا من عمره ، فأحس إحساس أهلها وذاق مذاقهم وضرب فى واديهم زمانا ثم انعطفت به السبيل ، فان تحدث عن بعض ما يحسون اليوم فى ذات أنفسهم فذاك لان له ماضيا بينهم لم ينقطع سببه ولن ينقطع وإن تفرقت به وبهم السبل ، وان رأوا به خلافا عن جادتهم أو زيغا عن

(١) ألقيت هذه المحاضرة بنادى دار العلوم فى مساء الاثنين ٢١ مايو سنة ١٩٤٣

مذهبهم فلا عليهم من ذلك الرأى ولا على رائيه ، فانما هو اليوم رجل على الساحل، فلعله فى موقفه ذاك من سيف البحر قد فقد شيئا من إحساس المغمور بالماء : لا يستشعر شيئا من حرارته أو برودته ، ولا يناله شىء من عنف الموج أوهوادته، ولكن هذا الواقف على الساحل مع ذلك قد يرى مالا يراه السابح فى اليم ، فان له من سعة النظر وعمقه مثل سعة ذلك البحر الذى يقف على ساحله ، ومثل عمقه كذلك، فلئن فاته شىء من إحساس المغمور بالماء إنه لمدلك ألوانا من الاحساس ومن الشعور لا يدرك بعضها السابح المغمور فى الماء .

هذا الفتى الذى وصفت مكانه منكم أنتم السابحين فى اللجة وبين أواذى البحر الصاخب ، هو صاحب ذلك الرأى الذى أتحدث به اليكم الليلة . . .

. . . وهو إنما يحدثكم عن (تعليم اللغة) لا عن (تدريس اللغة) وفرق ما بين العبارتين واضح ، فتعليم اللغة هو عمل طبيعى بدأته الطبيعة منذ هبط على هـــذه الأرض أول آدم ، عمل طبيعى أعانت عليه عناصر مختلفة من عناصر الطبيعة ، ومخلوقات عدة من مخلوقات الله : أعان عليه حفيف الغصن ، وزفيف الريح ، وهدير الموج ، وخشخشة أوراق الشجر ، ثم هذه الأذن وهذا اللسان . . .

. . . هذه هى العناصر الطبيعية التى أعانت على تعليم اللغة وألهمت أول آدم على هذه الأرض أن ينطق ، وأن يكون له تعبير وبيان يبلغ من نفس سامعه ما يبلغ .

. . . وقبل أن أمضى فى بيان ما قصدت اليه من الفرق بين تعليم اللغة وتدريس اللغة ، أرانى مسوقا إلى حديث يتصل بسببه ، ولعلنى فى حاجة اليه بعد ، فلا بأس من التبسط هنا فى الحديث عنه قليلا كى لا أعود اليه بعد . . .

ان أهم ما يعنينا من أدوات النطق ، أو من أوعية اللغة ، هو اثنان : الأذن واللسان ، ومادة اللغة ، أو مادة النطق : هى بين هذه الوعائين ، يفرغها وعاء فى وعاء كما تصب كوبا فى كوب ، فاللسان ينطق ، والأذن تعى ، وتمتلىء الأذن بما تمتلىء لتفرغ فى اللسان ما تفرغ ، وهذه العملية البسيطة المكررة هى كانت وسيلة أول آدم إلى الصوت ، ثم الى الحروف ، ثم إلى الكلمات ، ثم إلى النطق والتعبير والبيان ، ثم إلى أرقى مراتب البلاغة المطابقة لمقتضى الحال . . .

ذلك بديهى لا شك فيه ، ولكنه مع ذلك يدعونا إلى أن نسأل : أى هاتين الأداتين ، أو أى هذين الوعائين ، كان أسبق وجودا ، أو كان أسبق إلى إثبات وجوده ومزاولة عمله ؟ أيهما : الأذن أم اللسان ؟

الأذن ! . . . تلك حقيقة لا ريب فيها أيضا ، فليس من شك فى أن أقدم آبائنا على هذه الأرض كان يملك هاتين الأداتين ، أو هذين الوعائين ، ولم يكن أول أمره فى حاجة الى أحدهما ، أو كليهما ، لم يكن فى حاجة إلى أن يتكلم ، إذ لم يكن هناك من يكلمه ، ولم يكن فى حاجة إلى أن يرهف الأذن ليسمع ، إذ لم يكن هناك من يستمع اليه . . .

يسأل صديق : وحواء ؟ . . معذرة ! لقد نسيتها ، ولكن ذلك لا ينقض شيئا ذا بال مما أقرره ، إن حواء دائما ومنذ كانت ، فى حاجة إلى أن تتكلم أكثر مما تحس حاجتها الى أن تسمع ، فلم يكن آدم إذن فى حاجة إلى الكلام ، إذ لم يكن هناك من يكلمه !

ماذا قلت ؟

قلت إن الانسان الأول لم تكن به حاجة إلى أن يتكلم ، ولم تكن به حاجة إلى أن يسمع ، فكم دامت هذه الحال ؟ . . . ليتها دامت طويلا ، إذن لكنا اليوم فى راحة من بعض ما نحن فيه اليوم من عناء هذا العمل ، بل من كل ما نحن فيه اليوم من عناء هذه الحياة ، أترون شيئا من عناء هذه الحياة لا يرجع سببه إلى كلمة تقال أو كلمة تسمع ؟ . . .

وأحب أن أكشف هنا عن فرق ذى بال بين الأذن واللسان ، فعمل اللسان إرادى : لو شاء كل ذى لسان لأمسك أو لنطق ، ولا كذلك الأذن ، فان عملها غير إرادى ، فان المسموعات لتبلغها ساخطة أو راضية ، وإن كل ذى أذن ليسمع كل ما يتذبذب حوله فى الجو من أصوات أراد أم لم يرد . ومن هذا الفرق ينشأ فرق آخر : ذلك أن عمل الأذن سلبى ، وعمل اللسان إيجابى ، فالأذن يلقى إليها فتتلقى ، واللسان يلقى بعمله وإرادته ما يلقى . . من هذا الفرق وما ينشأ عنه يجد كل سائل برهانه على أن الأذن كانت أسبق إلى إثبات وجودها العملى ، وأسرع إلى مزاولة

عملها الطبيعى الذى خلقت له، من اللسان !

لم يكن الانسان الأول فى حاجة إلى أن يسمع ، ولا إلى أن يتكلم ، ولكنه سمع برغمه : سمع البلبل الشادى على الدوح فحن حنين كل مغترب ، وسمع خرير الماء فى النهر فأنس أنس الوحيد المستوحش ، وسمع حفيف الغصن يعتنق الغصن فاهتز هزة المشوق ، وسمع زفيف العاصفة تقتلع الصخر والشجر فانطوى على نفسه انطواء الخائف المتوجس ، وسمع صخب الموج يغلى غليانه فى اللجة الهائجة فأوى إلى ركنه أوى المتوقى الحذر ، وسمع عواء الذئب فاستطلع ثم استخفى ، وسمع كل زوجين من ذى كبد يتناجيان فأصغى إصغاءة ثم أغفى . . .

سمع الانسان الأول كل ذلك ، وسمع أصواتاً كثيرة غير ذلك ، واستقر ذلك كله فى واعيته ، أو فى عقله الباطن ، إلى حين ، ولم يكن حتى ذلك الوقت فى حاجة إلى أن يتكلم ، فلما وجد الحاجة بعد ، وجد عنده ذخرا لغويا كثيرا مما أفرغت أذنه فى لسانه ، وجد عنده ذخرا لغويا كثيرا من شدو البلبل ، ومن خرير الماء ، ومن حفيف الغصن ، ومن زفيف العاصفة ، ومن صخب الموج ، ومن عواء الذئب ومن نجوى كل زوجين من الطير والحيوان .

تلك هى اللغة الأولى التى لقفها الانسان الأول عن الطبيعة ، وذلك كل متنها ومنطقها وبلاغتها : أصوات ذات أوتار ، ولكل صوت نبره ومقاطعه وحروفه المتميز بعضها من بعض حينا ، المتداخل بعضها فى بعض حينا آخر . . .

ومن لغة هذه الكائنات الطبيعية ، الناطقة والخرساء ، كانت لغته . . .

أرأيتم كيف كانت الأذن أسرع إلى مزاولة عملها الطبيعى وأسبق فى الوجود العملى من اللسان ؟ ليت شعرى متى وجد الانسان حاجته إلى الكلام وقد وجد مادة النطق ؟ أحين وجد إلى جانبه إنسانا أخر ، أو إنسانة أخرى ، ينبغى أن يحدثها ، أم حين وجد نفسه ، نفسه ؟

أعنى : أكان منطق الانسان الأول كلاما — على شكل ما — مما يجرى بين شخصين من الناس تجمعهما رابطة إيجابية أو سلبية ، أم كان منطقه الأول غناما لنفسه حين أحس وجود نفسه ؟

لست أعنى الغناء الموسيقى الملحون ، فتلك مرتبة بعيدة ، ولكنى أعنى بالغناء محاكاة ما يسمع من أصوات الكائنات الطبيعية ، لغير داع إلا المحاكاة واختبار المقدرة الذاتية عليها ، فهذا هو ما أسميه بغناء الإنسان الأول ؟

ليس يعنينى ماذا كان أول منطقه ، أكان غناء أم محاولة صوتية للتفاهم مع إنسان آخر أو إنسانة أخرى ، ولكن يعنينى أنه كذلك بدأ يتعلم الكلام ، وأحس إحساس كل ذى لسان يستطيع أن يبلغ بصوته مبلغا ما . . .

أرانى قد أبعدت كثيرا ، وإنما كان أول حديثى أن أبين الفرق بين (تعليم اللغة) و (تدريس اللغة) .

أما تعليم اللغة فهكذا بدأ ، أو إن شئت فقل (تعلم اللغة) لا (تعليم اللغة) ، إذ لم يكن هناك معلم يعنى أن يعلم ، وطالب يقصد أن يعلم ، وإنما كذلك كان انفعال هاتين الحاستين انفعالا ذاتيا بالطبيعة ، فهو تعلم لا تعليم ولا معلم . . .

فما التدريس إذن ؟ التدريس هو هذا الفن الذى نجهد فى تعلمه والتماس أسباب القوة فيه ، لنكون معلمين أو مدرسين ، هو هذه المحاولات المتعددة لاستنباط أقرب الوسائل لتقويم لسان التلميذ وإعانته على البيان الصحيح ، هو هذه المهنة الكريمة البغيضة ، الكريمة بما تؤدى إليه من غاية ، البغيضة بما تحملنا من العنت والارهاق وسوء العاقبة فى العقل والبدن !

هذا هو التدريس ، وليس هو موضوع حديثى الليلة ، فلينتدب له من أهله من يشاء ، ولى موضوعى وهو (تعليم اللغة) !

وأحب أن أنوه هنا بالصديقين الكريمين اللذين حفزانى إلى اختيار هذا الحديث موضوعا لمحاضرتى ، وهما الزميلان سيد قطب وفايد العمروسى ، فقد كنا مجتمعين هنا ذات صباح فى طائفة من أساتذتنا وإخواننا لنضع البرنامج السنوى للمحاضرات فى هذا النادى ، فانتدب كل منهما لموضوع مما يتصل بطرائق تدريس اللغة العربية : أولهما فى تدريس الانشاء ، والثانى فى تدريس الأدب . . .

الإنشاء والأدب ؟ ما الإنشاء ؟ وما الأدب ؟ ما أبغض هذا التفريع إلى ؟

إننى لم أكره هذه المهنة وأفر منها لشىء إلا لهذا التفريع الذى يمزقها خرقا لا تستر

رمة . اللغة هى اللغة ، وإنما نعلمها لغاية واحدة : هى أن ننشىء طبقة من أبناء الأمة وبناتها على التعبير الصحيح والمنطق الفصيح قولا وكتابة ، فأين يبلغ من ذلك هذا التفريع الذى نفرعه، فنسمى انشاء ، ونسمى أدبا ، ونسمى قواعد ، ونسمى مطالعة، إلى أسماء أخرى لا تؤدى فى آخرها إلى غاية مما ننشد ! سألت نفسى هذا السؤال فلم أجد جوابا تطمئن اليه نفسى ، فانتدبت أنا أيضا فى حماسة لأتحدث حديثا عن تعليم اللغة ، اللغة التى لا تعرف هذا التفريع ولا تعيش عليه ولا تصح صحتها به !

وأحسن الظن بى من أحسن فاختارلى هذا المكان بينكم فى هذه الساعة ، وأقحمنى على المتاهة ثم قال لى : امض . . . وسأمضى ، فإما بلغت ، وإما توزعتنى الرياح فى أربعة أركان البيداء !

لا يقل قائل منكم : أكل هذا مقدمة لحديثك ، فأين تبلغ بنا حتى تنتهى من الحديث كله ؟

وأشفق على نفسى وعليكم من الجواب . أرأيتم فتى لم يعان البحر قط ولم يسبح فى لجته ، فانه لخائف متهيب ، يقف على الساحل طويلا يمس الماء بأطراف أصابعه ثم ينكص ، فلا يزال مقبلا مدبرا مما به من خوف وتهيب ، حتى تجذبه موجة فتلقه فى الأعماق أو تقذف به إلى بعيد فينجو نجاة الجبان ؟ .

. . . أرأيتم قط فتى كذلك ؟ إنكم لتحسبونى إياه من طول وقفتى بكم على الساحل وما بى شىء مما حسبتم ، وإنما وقفت طويلا هنا لأقيس بعينى هذا البحر المترامى فأنال شاطئيه بوثبة !

لم يكن ما أسلفت من القول هو مقدمة الحديث ، ولكنه الحديث كله ، وإنما لبست عليكم لأبلغ مبلغا بحجتى !

لقد أسلفت قاعدتين لم أشر إليهما فى موضعهما : الأولى إن أسلوب الطبيعة فى تعليم اللغة يقوم على أداتين : الأذن واللسان ، فالأذن تملى واللسان ينطق . هذه هى القاعدة الأولى فى تعليم اللغة ، لامعدل عنها ، لأنها هى القاعدة التى فرضتها الطبيعة على كل ذى أذن ولسان . . .

. . . أما القاعدة الثانية فهى إن التعبير باللغة هو وليد الحاجة ، فما لم تدع حاجة

فلا تعبير ولا بيان ولا لغة . . .

. . . وثمة قاعدة ثالثة تستمد مددها من القاعدتين السالفتين : هى أن اللغة وحدة معنوية لافروع لها فى الطبيعة ، وإنما هى التعبير الذاتى أو المنقول ، باللسان أو بالقلم ، فكل تفريع لهذه الوحدة يبعد بها عن الغاية ولا يحقق غرضا . .

هذه القواعد الثلاث هى جملة حديثى الليلة ، فان شئتم أخذت فى تفصيله وتطبيقه ، وإلا فحسبى وحسبكم . . .

١ - القاعدة الاولى :

أرانى قد بينت فيما سبق بكل ما أستطيع من البيان ، كيف تسبق الأذن اللسان وتذخر له ذخرها من متن اللغة ، وأسوق هنا مثلا آخر مما نحسه فى حياتنا ، لعلى أبلغ بهذه القاعدة حد اليقين فأبنى عليها الرأى الذى لا ينتقض . . .

هذا طفل فى أيامه الأولى ، دق له جرسا ، أو انقر له على صفيحة وانظر إليه ، ها هو ذا يلتفت لكل دقة وكل نقرة ، هذه اللفتة الطفلية هى تعبير منه بأزاء تعبير منك ، تعبير صامت منك ومنه ، ولكنه حديث بين نفسين .

ثم ها أنت ذا تتحدث إلى جانبه مع من يعنيك أن تتحدث اليه ، وإنه لصامت ولكن له أذنا واعية ، ذاخرة ، تختزن كل ماتسمع إلى حينه ، ونظرتك إليه صامتة ، ونظرته اليك صامتة كذلك ، ولكن ثمة حديثا بين نفسين !

وتمضى أشهر ، ويستدير العام ، ويبدأ عام جديد ، ولم يتعلم الطفل إنشاء ، ولا قواعد ، ولا أدبا ، ولم يطالع فى كتاب ، وتسمعه ذات يوم ينادى : با ، ما ، تا ، آ ، وتصيح فى دهشة ، أو تكتم دهشتك فى أعماقك وأنت تهمس : سبحان من علمك ! وإنما أنت معلمه الأول ، سبحانك !

ويتم معجم الطفل اللغوى بعد سنتين أو سنوات . فاذا هو يسألك فتجيبه ، وتسأله فيجيبك ، ويقص عليك فتستمع اليه وتفهم عنه ، وتقص عليه فيستمع اليك ويسألك المزيد ، وإذا كل ماسمع من كلام منذ كان ، يجرى على لسانه ، ويتدفق فى منطقه ، لاتعوزه كلمة ، ولا يقطع به فى عبارة ، ولا يرتج عليه باب من القول ، ويزيد على ما سمع عبارات من إنشائه ، وكلمات من مشتقاته أو من وضعه وارتجاله ، ويتميز بطابعه

البيانى فى بضع سنين ؛ فلو وجد منبرا واسامعا ونفسا يمده بالقوة لما أعوزه البيان ليخطب فيبلغ ويبين !

هذه الصورة ، وإنا لنراها فى كل بيت ، فى كل يوم ، هى مرآة واضحة السمات ، بادية القسمات ، للصورة الأولى التى تعلم بها أول آدم على الارض كيف يتكلم ..

هى طريقة الطبيعة منذ الأزل إلى الأبد ، منذ هبط آدم إلى الأرض حتى يطوى الله الدنيا ... فهل نسير نحن فى تعليم اللغة على الطريقة الطبيعية ؟

وكان لأسلافنا مدارس تعلموا فيها اللغة ، فكان منهم فلان وفلان وفلانون كثيرون من أئمة البيان الخالدين فى تاريخ العربية ، فكيف تعلم هؤلاء جميعا ؟ أتعلموا على مثل هذا المنهج الذى نعلم عليه فى مدارسنا ؟

لقد كانوا ينتجعون البادية فيلقفون اللغة من أفواه العرب الأصلاء ويروون من شعرهم ونثرهم ، فاذا عادوا عادوا بالذخيرة التى لاتنفد ، فانهم ليحسنون أن يقولوا فيبلغوا ، وأن يقرأوا فلا يلحنوا ، وأن يميزوا الخطأ من الصواب ، وما عرفوا نحوا ولا درسوا بلاغة !

قالوا : وكان فلان من أمراء الدولة الأموية لحانة ! لأنه لم ينتجع البادية كبعض الأمراء من أهله ، وآثر النعمة فى حجور الإماء والعبيد من قصر الخلافة . هكذا قالوا فى تاريخ الأدب الذى نعلمه أبناءنا وبناتنا ليستظهروه فيحاكوه محاكاة الببغاء ، ولو عقلنا لوغينا نحن المعلمين هذا الذى قالوه بدل أن نحمل التلاميذ على حفظه . . .

ويقول قائل : وأين منا اليوم الحياة التى كان يحياها أسلافنا ؟ وأين منا البادية والعرب الأصلاء ؟

أرأيتم إلى البارودى الشاعر كيف استعرب فى هذه الأمة الأعجمية ، فكان أستاذ شعراء هذا الجيل فى البيان وحسن السبك ، وما عرف النحو ولا العروض ولا درس ألفية بن مالك ؟

ذلك رجل انتجع البادية فى بطون الكتب ، وشافه العرب الأصلاء فيما خلفوا من رائع الشعر والنثر ، وعاد من رحلته شاعراً ملء سمع الشرق ، وملء عين التاريخ !

هذا رجل تعلم العربية على أسلوب الطبيعة فى تعليم اللغة !

ويقول قائل آخر : وتريدنا على أن نبدأ فى تعليم اللغة بأن نضع بين يدى تلاميذنا وتلميذاتنا مختارات البارودى وما قرأ من روائع شعر الأقدمين ونثرهم ؟

وأنا لم أحدد أين نبدأ ، وإنما ضربت المثل وصوبت إلى الهدف على مبعدة : لقد تعلم آدم اللغة من أفواه الطير ، وتعلمها الأصمعى من أفواه البدو ، وتعلمها البارودى من القراءة

فلتكن الوسيلة والغاية أن نقرأ ، نقرأ صمتاً وجهراً ، نقرأ ما نفهم وما لا نفهم ، نقرأ ما نريد ومالا نريد ، فسيؤدى بنا كل ذلك إلى أن ننطق كما قرأنا . .

ابحثوا عن الكتاب الذى يستطيع التلميذ أن يقرأه وحده فيفهم عنه ، أو يفهم منه ، فأن لم تجدوا هذا الكتاب فى المكتبة العربية فاخترعوه ، ثم تدرجوا بالتلميذ من كتاب إلى كتاب إلى كتاب إلى مختارات البارودى . . إن كان لا يرضيكم أن تبدأوا بمختارات البارودى !

ويعترض معترض آخر : كيف يقرأ التلميذ ما لا يفهم ؟ وأجيبه : وذلك أيضا أسلوب الطبيعة : إن الطفل يلقف من لغة أبيه مايفهم ومالا يفهم ، مايريد و مالا يريد ، ولا تزال الكلمة الغريبة تدور فى ذهنه دورتها ، ولا يزال يسمعها مرة بعد مرة بعد مرة ، حتى يتحدد معناها فكأنما قرأها فى معجم ، ولا سبيل إلى أن تضع بين يدى التلميذ كتابا يفهم كل ما فيه من متن اللغة ومن معانيها ، وإنما حيلة المؤلف هنا أن يدور بالكلمة الغريبة دورة فى عدة عبارات تقربها كل عبارة من معناها خطوة ، حتى تبلغ بها وبقارئها المبلغ الذى لا يحتاج معه إلى أن يسأل عن معناها ، وإن المؤلف الأديب المتمكن من لغته ومن معانيه ، يستطيع أن يضع الكلمة الغريبة فى إطار من الكلمات يكتنفها عن يمين وعن شمال ، فلا يكاد مدلولها اللغوى يفلت من ذهن قارئها ، ولم يذيل بشرح أو تعليق ، وقد جربت أنا ذلك فى أكثر ماوضعت من كتب للأطفال ، وأحسبنى قد نجحت إلى حد ما ، فلم أحتج مرة واحدة الى تذييل الصفحة بتفسير كلمة غريبة ، على كثرة ما قد يكون فى الصفحة من الغريب ، لأن هذا الغريب عن يمينه مصباح وعن يساره مصباح يكشفان عن معناه !

. . فإذا استوى للتلميذ حظه من اللغة ، ومن القدرة على التعبير والإفصاح عما

فى نفسه ، ومن النطق المبين — إذا استوى للتلميذ حظه من ذلك كله . نظر المعلم فى تهذيب لغته وصقل بيانه، بشرح ما قد يحتاج اليه من قواعد النحو والبلاغة عمليا . كل قاعدة فى وقتها ولمناسبتها ، من غير تزيد ولا إسراف ولا قصد إلى تثبيت القاعدة ، وإنما هى وسيلة إلى عدم الوقوع فى الخطأ ليس غير ، فاذا أدت القاعدة مؤداها فى ذلك فلا بأس أن تنسى ، اذ كان كل المطلوب هو تعويد التلميذ أن يعبر تعبيرا سليما بليغا على مقتضى الحال، أو أن يقرأ قراءة مبينة ليس فيها لحن ولا خطأ ، وماذا يرجى من تعليم اللغة إلا ذاك ؟

وإنى لأزعم أن كثيرا من طلاب اللغة حينئذ لن يجد معلموهم حاجة إلى تعليمهم كثيرا من قواعد اللغة .

أراني قد فرغت الآن من بيان القاعدة الأولى فى تعليم اللغة بيانا ما، لعله لا يعقب سائلا ولا معترضا .

٢ — أما القاعدة الثانية : وهى أن التعبير باللغة وليد الحاجة ، فهى قاعدة واضحة المعنى ، واضحة الغاية كذلك ، ولا أحسبنى فى حاجة إلى البرهان على صحتها فإننا فى حياتنا العادية لنعرف فى أنفسنا برهان ذلك ؛ وأينا الذى يتكلم وحده أو مع الناس كلاما لا تدعوه الحاجة اليه، إلا أن يكون محموما يهذى أو مخبولا يهرف، وحتى لو زعمنا أن الانسان الأول نطق أول ما نطق باللغة محاكاة للطبيعة ليس غير، فان هذه المحاكاة نفسها هى حاجته ، والمحاكاة غريزة قوية تتصل بغرائز أقوى وأعظم أثرا ، فلا سبيل إلى إنكار سلطانها على الانسان وما تفرض عليه من حاجة ، فهذا برهان هذه القاعدة ؛ ولكن ما أثرها فى تعليم اللغة ؟

هأنذا أضرب مثلا بتلميذ واحد ، وانه لصورة من كل تلميذ فى مدارسنا : هذا التلميذ يقرأ فى درس التاريخ كتاب التاريخ، وفى درس الجغرافيا كتاب الجغرافيا ، وفى درس العلوم كتاب العلوم؛ وهلم جرا حتى نبلغ كتاب المطالعة، فاذا يقرأ فيه ؟

إنه يقرأ دروسا من التاريخ ، ودروسا عرفها فى كتاب الجغرافيا أو سيعرفها، ودروسا فى مبادىء العلوم يعرف أن مثلها فى كتاب العلوم ، ولا يجد من مادة فى كتاب المطالعة إلا ولها كتاب خاص باسمه وبموضوعه — فيقع فى وهمه

أن هذا الكتاب ، كتاب المطالعة ، ليس المقصود منه هذه المادة العلمية التى يقرؤها فيه ، ولا هذه المباحث النافعة ، حتى ولا تلك الأقاصيص الشائقة ، وإنما المقصود كل المقصود هو القوالب اللغوية مجردة عن معانيها وعن مدلولاتها ، فى العلم أو فى الفن أوفى القصص ، وبعبارة صريحة : يوقن هذا التلميذ أن هذا الكتاب ، كتاب المطالعة ، ليس هو المادة ولكنه الصوت ، ليس هو المعانى ولكنه الحروف ، ليس هو الكلام بمدلوله ولكنه اللغو الفارغ ، ليس هو منطق الانسان العاقل ولكنه منطق الببغاء !

فاذا وقر فى نفس هذا التلميذ ذلك المعنى فقد نشأ منه فى نفسه معنى آخر : هو أن المطالعة ليست هى العلم، وليست هى تحصيل المعلومات ، وليست هى استيعاب المعنى والاحاطة بالموضـــوع ، ولكنها الصوت ومخارج الحروف ومعانى بعض المفردات أحيانا ؛ وقد يضطره معلمه فى بعض الدروس إلى أن يستوعب المعنى فهما فيسخر منه التلميذ ، لأنه يعرف لتحصيل المعنى كتابا غير هذا الكتاب ، وقد يسخر المعلم نفسه من نفسه !

أرأيتم إلى حضرات المفتشين يكررون الشكوى كل عام من إهمال كثير من المعلمين فى عدم حمل التلاميذ على العناية بالمعنى الجلى فى المطالعة ؟ فهنا السبب ؛ ليس هو إهمال المعلمين . لا . ولا هو إهمال التلاميذ . لا . ولا هو الكسل الذهنى فى هؤلاء وأولئك ، ليس السبب الحق واحدا من هذه الأسباب ، ولكنها العوامل النفسية التى نشأت من اليقين المشترك بين المعلم والتلميذ بأن المعانى الجلية فى كتاب المطالعة ليست شيئا مطلوبا لذاته ، ولا هى مطلوبة للواسطة ، ولكنها حشو لا يقصد لمعنى . كما يحشى البو ، أو كما يحشى الناطور فى حقول الكرم ليفزع الطير

فالتعبير اللغوى فى كتب المطالعة إذن ليس هو وليد الحاجة ، ولكنه صوت ومن هنا لم تؤد كتب المطالعة فى مدارسنا إلى نتيجة ، على ما يلمع بعضها من جودة التأليف وحسن العرض .

وقد قدمنا فى بيان القاعدة السابقة أن المطالعة ينبغى أن تكون هى الأساس فى

تعليم اللغة ، فوجب لكى تؤدى المطالعة إلى نتيجة وتبلغ بنا إلى هدف أن نجعل هذه المطالعة وليدة الحاجة .

وسبيلنا إلى ذلك واضحة : هى ان نجعل كتب المطالعة هى كتب التاريخ ، وهى كتب الجغرافيا ، وهى كتب العلوم النظرية كلها ، لا كتب غيرها فى هذه الفنون . وبعبارة أخرى : ان نجعل دروس التاريخ ، ودروس الجغرافيا ، ودروس العلوم النظرية جميعاً — أبوابا من دروس اللغة ، فى كتب تدرس لمعناها ومبناها ، لما فيها من علم وما فيها من لغة ... وبذلك لا يكون فى المدرسة إلا مادتان من مواد العلم : هما اللغة ، والعلوم أو الفنون العملية !

ألا إن نجاح المدرسة لا يقاس بعدد الذين اجتازوا الامتحان من تلاميذها، ولكن بعدد الذين اجتازوا معبرها إلى الحياة . . .

ومن المسلم به عند كل المشتغلين بالتربية ، أن المدرسة ليست هى المكان الذى يحصل فيه التلاميذ العلم ، فان العلم لا آخر له ، وإنما المدرسة هى المكان الذى يعد فيه التلاميذ لالتماس أسباب العلم أينما وجدوه ، فهى تشوق إلى المعرفة وتمهد السبيل اليها ، ثم تقول للتلميذ : امض فالتمس أسبابك . . .

والقراءة هى السبب الأول إلى العلم ، وهى السبب الآخر كذلك ، وعليه فان نجاح المدرسة كذلك لا يقاس بطول مناهجها ومقدار مادرس التلاميذ من هذه المناهج ، وإنما يقاس بمقدار ما أذكت فى نفوس طلابها من شوق إلى القراءة والتزود من المعارف بالمطالعة الدائبة بعد الخروج من المدرسة . .

لا جرم كانت المطالعة بكل ذلك هى العلم كله ، ومن أين لله يدرك التلميذ ذلك وما عرف المطالعة فى المدرسة إلا أنها صوت ورنين ونطق مبين ؟

٣ — وددت لو أستطيع أن أتعقب هذه القاعدة بالأمثلة الكثيرة لأبرهن لكم على صحة ماذهبت اليه ، ولكن وقتى ووقتكم لا يتسعان لذلك ، فلأنظر الآن فى القاعدة الثالثة ، وهى أن اللغة وحدة معنوية لا فروع لها فى الطبيعة ، ولست أرانى فى حاجة إلى بيان فيها أكثر مما قدمت فى شرح القاعدتين السابقتين ، وإنما هى كما

قلت تستمد مددها منهما ، ولست أرانى كذلك فى حاجة إلى تقديم البرهان ، فان أغلى الغلاة فى التشيع إلى ما يسمونه فروع اللغة من نحو وبلاغة وإنشاء وأدب وغيرها — لا يكاد يجد فى نفسه جرأة على الزعم بأن هذه الفروع لها فائدة فى نفسها ، وإنما هو يراها وسيلة إلى شىء تصلح به اللغة ، وها نحن أولاء نعالج هذه الفروع بوسائلنا المختلفة منذ أجيال ، فماذا استطعنا أن نصلح بها من اللغة ؟ نعم لقد استطعنا شيئا ما ولكننا ضيعنا اللغة نفسها أو هى كادت تضيع . . .

إن المقام الأول فى اللغة للتعبير ، للبيان الناصع ، فتلك مهمة اللغة الأولى ، فاذا أفلحنا فى تعليم أبنائنا وبناتنا أن يعبروا عما يريدون نطقا وكتابة فى بيان ناصع ، فقد وجب حينئذ أن ننظر فيما يقتضيه المقام من هذه الفروع ، فان وجدنا إليها حاجة سددنا الخلة وجعلنا الرقعة على قدر الخرق ، والا فحسبنا ما بلغنا .

ان الذين اخترعوا هذا النحو لم يخترعوه ليستغنوا به عن اللغة نفسها ، ولكن ليضبطوا حدود هذه اللغة ، فاذا انضبطت اللغة بغيره فلا حاجة إليه .

ماذا يستطيع أبناؤنا اليوم من التعبير ، على كثرة ما نحملهم من قواعد اللغة ؟ لا شىء إلا قليلا من قليل ، فقد طيرنا العصفور واحتفظنا بالريش !

قالوا : إن غنيا أحمق رأى فى منامه أن الله سيفجر له فى البادية الصماء نهرا ولا كالنيل ، فلما أصبح غدا على العمال والفعله والبنائين والمهندسين يبذل لهم من ماله ليقيموا الجسور والسدود والقناطر فى عرض البادية ، توقعا لما يكون من فيض ذلك النهر الجارف ، وليتلك بوضع اليد ، أو بوضع الجسور والسدود ، هذه المزرعة النضرة التى انبثقت له فى ظلمات المنام ، فلما أشرف على الأملاق والمتربة صحا من غفلته فاذا الصحراء صحراء لم تزد على ما كانت إلا الجسور والسدود والقناطر تلاطم سافيات الرمال ، ولا قطرة ماء إلا دموع الندم !

ألا ما أشبه حالا بحال !

لست أدعو إلى إهمال النحو والأدب وقواعد اللغة ، إنها لكبيرة ، ولكنى لا أسيغ أن ننفق المال والجهد والعافية والزمن فى إقامة السدود والجسور والقناطر

قبل أن نستيقن أن هنا نهرا يجرى ، فاذا ما جرى النهر وفاض فهذا أوان كل أولئك

* * *

أرانى قد أطلت وما بلغت غاية ، وما أراكم وقد اختلست من وقتكم هذه الساعة فى أحب أوقات الراحة اليكم إلا سائلى فى رفق أو فى عنف : ألهذا جمعتنا ؟ وما هو ذنبى ، ولا كان بيدى أن أجشمكم ما تجشمتم ، وانما طمعت أن أراكم فاحتلت ، ووثقت من بركم بى فأثقلت ، ولى بعد ذلك رجاء إلى الله أن يهدينى وإياكم سبيل الرشاد !

محمد سعيد العريان

بالمكتب الفنى لمعالى وزير المعارف